

## الآن يتهلل

بقلم: د. راقية جلال الدويك

الأيام التي تشبه بعضها ليست لعنةً كما يظن البعض، بل إن تعاقب الأيام وانفلاتها من عقاب الثبات النسبي لأحداثها هو ما يخيف بحق.

كانت أيامه متشابهة رتيبة المثل، تتكرر في صباحاتها الأحداث كل يوم، وتكرر مساءاتها ما يكون في كل مساء. كان ينظر لليوم تلو اليوم يسأله التبدل والتغير، إذ كان لا يرى من رتابة حاله إلا الموات المتجلى في تكرر الأشياء ذاتها وذات الأحداث. ولما كان للأيام منهجها المصقول في المسير، ولما كان للأقدار كتابها المبرم، فقد قوبل سؤاله لفترة غير قصيرة من الزمان بما ظنه رفضاً، وما فسرته هواناً حال.

كان من جيلته البشرية أن قاوم التكرار والرتابة، وسعى في أرجاء كونه الصغير يضرب الأركان ويطرق الأبواب، هذه الأركان كانت رافضة دوماً الضرب عليها، كما ولم تنصفه الأبواب يوماً فتفتوح. لكنه لم يعب أن ذلك ليس لعيب في خطوته ولا سعيه، وإنما لأنه الوقت بعد لم يحن؛ ذلك أن للأيام كتاباً تسير وفق منهجه وتتجلى في مواعيد تجليها المكتوبة فيه.

لكنه ظل على كل حال يسعى ويضرب الطرقات، ثم يؤوب خذلاً بعد كل مرة، فيستشعر شيئاً من الافتقاد لرتابة حاله الذي طالما رفضه وجافاه. كان ذلك ديدنه مع الدنيا، يروح ويرجع.. يحاول ويفشل.. فيعود، ويهدأ، فيمَل، فيعود يحاول. وقد كررت له الأيام ردها الواحد، وكرر هو معها فعله الأوحده.

ثم بعد حين .. بعد انقضاء لمعة التجربة، بعد التثبُّت من ضباية المحاولة في غير موضعها، كان أن سلّم بالرتابة وتكرار الحال، فركن إلى منزله البسيط بقريته الصغيرة، يربي فراشاته، ويناكف ذباباته، ويقاوم الخيال. نظر فيما حوله فوجده ليس بهذا القدر العظيم من السوء الذي ظنه عليه، ونظر لمن حوله فوجد فيهم أحبابه المخلصين، فإذا به للمرة الأولى يقنع بالسكون؛ سكن.. وسكنت من حوله الدنيا وكأنها تؤكد له ما ارتآه، وهو قد ظن ذلك وصدقته، وصدق عليه بالهدوء التام.

ثم.. حان للأيام أن تأخذ خطوتها التالية، التي ظن هو من طول أمد ما سبقها أنها لن تأتي، أدارت الدنيا وجهها الرتيب الهادئ، فإذا بكل ما حوله يهتز، وإذا بمن حوله يخفون. هذا أخوه يسافر لا يعلم له موعد عودة، وهذه أخته تهاجر مع عائلة جديدة ورجل يملكها وتملكه.. هذه أمه تغادر فجأة!! أمه.. الساكنة في مقعدها الأثير، صانعة الحلوى والخبز والحكايات، تغادر فجأة دون نذير، فتحط في نفسه جذوة من نار ليست شديدة الاشتعال بقدر ما هي عميقة الألم، ظلت هذه الشعلة على حالها في صدره حتى اعتادها، بل وكان يفتقد حرّها إن ألّهته عنها يوماً الأحداث.

لم يعد معه من الأحباب إلا أبوه، أبوه!! نعم هذا الشديد القاسي.. الحبيب الغالي.. كم كانت حواراتهما دوماً شائكة، ولقاءاتهما دوماً عسيرة، كان يحبه كثيراً كثيراً، لكن أباه كان من ذلك الجيل الذي يرى في إظهار المودة ضعفاً، وفي التلّفط بالمحبة ترقفاً. فكان يصمت كلما قال له الفتى «أحبك يا أبي»، فكان الفتى يعصّ بالمحبة مرة تلو مرة، يبلعها فلا ينطقها، وتؤلمه ولا تجرحه.

هذا الأب هو اليوم كل من بقي له، وهو اليوم حاجته الماسّة؛ طغت محبته لأبيه على خوفه من صده، لمّا رأى وجه الأب يضمّر بالمرض وقلبه توهنه الآلام، لكنه هذه المرة كان يحبه بالفعل فقط؛ إذ ما عاد يستطيع قول: «أحبك يا أبي»!! كان الأب يدري ويقدر؛ فهو على ضمور وجهه مازال عقله مزدهراً، وعلى آلام قلبه مازالت روحه عفية. ظل الولد يخدم أباه، والأب يتلقى المحبة، الابن يخدم والأب يعي، الابن يخدم والأب يمتنّ، الابن يخدم والأب يدعو صامتاً لابنه بالسعادة والعافية.

ظلت الحال على ذلك أعواماً وبضعة أشهر، حتى اعتاد الولد الخدمة فلم يعد يرى فيها إلا روتينه الرتيب، لكنه روتين -رغم عذابه- كان بالنسبة إليه أقل شقاء من الوحدة المطلقة.. حتى أتى يوم، والولد على حاله؛ يخدم أباه، يمشط شعره وينظف ثوبه ويمسّد جبهته بيديه، إذ بالأب يسحب يد ابنه إلى فمه، فيقبلها، وإذا بالفتى يجفّل ويدهش وتعيقه المفاجأة عن السؤال أو الجواب.

ترك يده يقبلها فم أبيه، لم يَقْوَ إلا على نظرة خجلى ملؤها الدهشة لعيني الأب اللتين ما زالتا تحملان لمعة زمن الفتوة القديم، ثم إذ بلسانه ينطق بصعوبة بالغة «ما هذا يا أبي؟ ماذا تفعل؟» فإذا بالأب يقول له: «أقبل يديك، هذا عرفان ببرك العظيم بي، واعتراف إجمالي عن سنوات طوال كنت فيها أود أن أقول لك (أحبك يا بني) لكنني لم أستطع!»

ساعتها، هدأت في نفس الابن كل النيران الصغيرة عميقة الألم، ونبتت مكانها حدائق من بهجة واطمئنان.. لم يحتج الابن إلى مزيد من الأسئلة، ليس بحاجة ليقول: «أحقا تحبني؟ لماذا لم تقل لي سابقاً؟ أنت من قديم العمر بيننا تحبني؟» لم يكن لأي سؤال موقع من منطقي، وعلى ذلك فقد وقر قلبه واستقرت جوارحه.

لم تطل الأيام بالابن مع الأب كثيراً بعدها، إذ واجهته الوحدة الكبرى حين لبى الأخير نداء الرحيل الجبري، فنظر الولد يمنة ويسرة، فإذا بالكون يصفر صمًا، وإذا بمكان الأب الذي كانت تملؤه العقاقير ووسائل الشفاء فارغ نظيف.. وإذا بقلبه خاؤ ضعيف!!

كانت الرتبة حينها صديقًا وفيًا لم يرفضه، إذ كان نورًا ما يتسلل إلى قلبه يومًا بعد يوم ليملاً فراغ روحه المعذبة بالوحدة.. في بادئ الأمر لم يبع من أين تأتيه هذه الطمأنينة، وكيف لم تعد روحه جزعة ولم يعد قلبه يحترق، لكنه لما أوقف البحث عن التفاسير، وأطلق في عنان النور الطلق روحه كاملة، إذا به يتهل قائلاً: «لما روتني المحبة، لما استقام الوداد، فقد رأيت الله.. إني رأيت الله.. إني رأيت الله».